﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨﴾ [الرّعد: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـرَّبْـطُ بين الزّبدِ وما يَنفعُ النّـاسَ، وبين مآلِ المُستَجيبين والمُعرِضين

لمّا ضَرَبَ اللّه الأمثالَ المُؤثِّرةَ القويّةَ للنّاس لعلّهم يَعلمون فيؤمنون، افترقَ المخاطَبون حيالَها إلى فريقين؛ فريقٌ استجابَ لربِّه، واتّعظَ بالأمثال، وأفادَ من مَراميها، وفريقٌ عميَ وتغافلَ عن الاعتبار بها وبمقاصدِها، فجاءَتِ الآيةُ: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾ لتُبيّنَ مآلَ المُستجيبين المُعتبِرين، ومآلَ المُعرِضين المُعانِدين الّذين لم يَسْتَجيبوا لربِّهم. فللمُستجيبين الحُسنى، وللمُعرِضين الحسرةُ والنّدامةُ وعذابُ جهنّمَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ﴾: أصلُ (فدي) أنْ يُجعَلَ شيءٌ مكانَ شيءٍ حمًى لَهُ، يُقالُ: فَدَيتُهُ أفديهِ، كأنَّكَ تَحميهِ بنَفسِكَ أو بشيءٍ يُعَوِّضُ عنهُ[1]، والفِدَى: جَمعُ فِديَةٍ. والفِداءُ: ما تَفدي به وتُفادي. والفِعلُ: الافتِداءُ[2]. وافتَدى: إذا بَذَلَ ذلك عن نَفسِه، والمُفاداةُ: هو أن يَرُدَّ أسرَ العِدَى، ويَسترجِعَ منهُم مَن في أيديهم[3]. وتَفادَى القومُ: استَتَرَ بعضُهم ببعض مَخافةً، وتَفَدَّيتُه وفَدَّيتُه واحدٌ[4]. والمقصودُ بـ ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ﴾ في الآية: إعطاءُ شيءٍ بدلًا عَن حَقٍّ للمُعطَى.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فدي).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (فدى).
(3) الرّاغب، المفردات: (فدى).
(4) الخليل، العين: (فدي).

2) ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾: أصلُ (مهد) يدُلُّ على تَوطِئَةٍ وتَسهيلٍ للشَّيءِ[1]. والمهدُ: التَّوثيرُ، ويُقالُ للفِراش: مهادٌ لوَثارته. يُقالُ: مَهَّدتُ لنَفسي، ومَهَّدتُ؛ أي: جَعَلتُ مَكانًا وطيئًا سهلًا، ويُقالُ: مَهَدتُ لنَفسي خيرًا؛ أي: هيَّأتُه ووطّأته[2]. والمَهدُ أيضًا: للصَّبيِّ، وكذلك المَوضِعُ إذا مُهِّدَ ووُطِّئَ[3]. والمِهادُ اسمٌ أجمَعُ منَ المَهد، كالأرض جَعَلَها اللّه مِهادًا للعباد، وجمعُ المِهاد مُهُد وثَلاثَة أمهدة[4]. والمُرادُ بـ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾ في الآية: اسمٌ لشيءٍ يُمَهَّدُ؛ أي: يوطَّأُ ويُسَهَّلُ لِما يَحِلُّ فيه. وإنَّما سَمَّى جهنَّمَ مِهادًا تَهكُّمًا؛ لأنَّ العُصاةَ يُلقَونَ فيها فتُصادِفُ جنوبَهم وظهورَهم[5].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

للمُؤمنين الطّائعين الجزاءُ والنّعيمُ، وللعُصاةِ النّارُ والعذابُ الأليمُ

بيَّنَ اللّه سُبحانَه في هذه الآية عاقبةَ أهلِ الحقِّ، وعاقبةَ أهلِ الباطلِ، فقال: للّذينَ أجابوا ربَّهم، فآمَنوا به، وأطاعوه ورَسولَه، الجزاءُ الحسَنُ في الدُّنيا، والجنَّةُ في الآخرةِ، والّذين لم يُؤمِنوا برَبِّهم، ولم يطيعوه ورَسولَه، لو أنَّهم يَملِكونَ كُلَّ شَيءٍ في الأرضِ، ويَملِكونَ مِثلَه معه، لقدَّموه فداءً؛ لتخليصِ أنفُسِهم من عذابِ النّارِ يومَ القيامةِ، فلن يُتَقبَّلَ منهُم، أولئك يُحاسَبونَ على كُلِّ ما أسلَفوه مِن عمَلٍ سيِّئٍ، ومَسكَنُهم ومَقامُهم جهنَّمُ تكونُ لهم فِراشًا، وبِئسَ الفِراشُ الَّذي مَهَدوه لأنفُسِهم[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

فائِدةُ الاسْتِئنافِ البيانِّي في السّياقِ:

بيانُ جَزاءِ الفريقَين أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطلِ

تعودُ فائدةُ الاستئنافِ البيانيِّ هنا إلى بيان جزاءِ كُلٍّ مِن أهل

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مهد).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مهد).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (مهد).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مهد).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/272.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 13/505، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/307، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/449، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 416.

الحقِّ وأهلِ الباطلِ، بعد أن سلفَ في المَثَلين السّابقَين تمثيلُ كُلٍّ منَ الحقّ والباطل للمُمثَّل لهم، بما يعظِّمُ من قدرِ الحقِّ ويحبِّبُه للنّاس، ويشنِّعُ الباطلَ ويبغِّضُه لديهم. وكأنّ سائلًا سألَ: إذا كانَ هذا شأنَ كُلٍّ منَ الحقّ والباطل، فما جزاءُ مَنِ امتثلَ للحقِّ، وما جزاءُ مَن هوى إلى الباطل؟ فكانَ الجوابُ: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ﴾، وحينئذٍ يكونُ بين هذه الجملةِ وما قبلَها شِبْهُ كمالِ اتّصالٍ، وقد يكونُ تقديرُ السّؤال: ما فائدةُ ضربِ الأمثال؟ والجوابُ: الفائدةُ أنّها حين تُضرَبُ يظهرُ أنّ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾، وحينئذٍ يكونُ في ذكر جملة الاستئنافِ البيانيِّ، "زيادةُ تنبيهٍ للتّمثيلِ وللغرضِ منه، مع ما في ذلكَ مِن جزاءِ الفَريقَين؛ لأنّ المُؤمنينَ استجابوا للّه بما عَقَلوا الأمثالَ، فجوزوا بالحُسنى، وأمّا المُشركون فأعرَضوا، ولم يَعقِلوا الأمثالَ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: 43]، فكانَ جَزاؤُهم عذابًا عظيمًا، وهو سوءُ الحساب"[1].

إيثارُ الاسمِ الموصولِ عن ذِكْرِ المؤمنين والكافرين:

تَعليلُ جزاءِ كُلٍّ منَ الفريقين بارزٌ في الصِّلتَين

لم يصرِّحْ هنا بذكر الفريقَين؛ المؤمنين أهلِ الحقّ، والكافرين أهلِ الباطل، وإنّما عَدَلَ إلى المَوصولَين وصِلَتَيهما في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ﴾ و﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ﴾ إيماءً إلى أنّ الصِّلَتَين - الاستجابةَ وعدمَ الاستجابة - سَببانِ لِما حَصَلَ للفريقَين[2]، فكان الموصولُ هنا مدحًا لأهل الحقِّ، والموصولُ الثّاني ذمًّا لأهل الباطلِ.

دَلالةُ تَقْديمِ جملةِ الخبرِ (المُسنَدِ) على المُسنَدِ إليه:

فائدةُ التَّقْديم الحصْرُ، وهو منَ فَصيح البَيانِ

في تقديم جملةِ الخبرِ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ ما يفيدُ الحصْرَ[3]، وفيه تحقيقٌ لغرَضٍ مُهمٍّ هو التّنويهُ بشأن الّذين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/122.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/491.

استَجابوا[1]، وتفخيمُ أمرِهم؛ لكونِهم استجابوا لربِّهم، وانْتَفعوا بضرب الأمثالِ، بخلاف غيرِهم.

التَّعْبيرُ عنِ الاسْتِجابةِ بالفعْلِ الماضي:

الاسْتِجابةُ للهِ سِمةُ الصّالحين، ماضيا وحاضِرًا

عبَّرَ في جملة الصّلة بالماضي فقال: ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾ دلالةً على تحقُّقِ ذلك فيهم في الماضي، واستمرارِه أيضًا في الحال، كما هو معروفٌ من دلالة الصّلةِ عندما تكونُ فعلًا ماضيًا. ووَسْمُهُم بحتميّةِ الانقيادِ والاستجابةِ إعلاءٌ لِمكانتهم بوصْفِهم خاضعينَ، مُنقادينَ، طائعينَ لربِّهم، وهذه صفاتُ المؤمنِ الحقِّ.

بِناءُ الفعْلِ على صيغةِ الاسْتِفعالِ:

بيانُ أنّ اسْتِجابَتَهم كانت عن طلَبٍ، ورغْبةٍ، وطاعةٍ

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾: معناه: أجابوا، والسّينُ والتّاءُ فيه لتقوية الفعل[2]. وتدلُّ على معنى الطّلب؛ أي: أنّهم طالِبونَ للإجابة، راغبونَ فيها انقيادًا وطاعةً.

دَلالةُ اللّامِ وتعلُّقُها مع مجرورِها:

تَحقيقُ القولِ في المُتعلَّقِ، وما يترتَّبُ عليه من مَعانٍ

اللّام هي لامُ الاسْتِحقاقِ، والأصحُّ في مُتعلَّق اللّام الجارّة ومجرورِها، أنّه محذوفٌ، والجملةُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ﴾ خبرٌ مُقدَّمٌ، والمبتدأُ هو ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وذلك لأنّ الجملةَ استئنافيّةٌ، كما مضى توجيهُها على هذا. ويجوزُ كونُ الجارِّ والمجرور مُتعلِّقَين بـ﴿يَضْرِبُ﴾[3]، وحينئذٍ يكونُ ضربُ الأمثال هو ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ﴾، واللّامُ داخِلةٌ على المُمثَّل له[4]، ولا يُساعدُ هذا الرّأيُ جمعَ لفظ الأمثالِ، مع كون الّذي مرَّ في الآية السّابقة مثلَين فقط، فصيغةُ الجمع إذن غيرُ مُلائمة[5] وهذا معناه أنّ ضربَ الأمثال مُرادٌ به النّاسُ، وليس

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/108.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/534.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/233.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/375، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/491، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/126.

فقط المُستجيبين وقسماءَهم. ثمّ إنّ تخريجَ الآية على الاستئنافِ أقوى، وفصاحةُ النّظْمِ تَستدعيه[1]؛ لأنّ فيه بيانًا لجزاء الفريقَين، وهي النّتيجةُ والغايةُ، كما أنّ التّخريجَ عليه يَخلو مِنَ الاعتراض المذكور. ولذا فإنّ علماءَ الوقف والابتداءِ نَصّوا على لزوم الوقفِ على ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾، فهو عندَهم وقفٌ تامٌّ[2] بحسب ما يرجِّحُه أيضًا قولُه تعالى: ﴿*لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26]، فـ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي الجنّة، وعليه يكونُ معنى الآية: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ الجنّة، فيَلتئِمُ السّياقُ، بخلاف التّخريج الآخرِ، فإنّ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ عليه تكونُ صفةً لمصدرٍ محذوفٍ؛ أي: الاستجابة ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾، ولا معنى حينئذٍ لهذا الوصف؛ لأنّ كلَّ استجابةٍ للّه هي حُسنى.

التّعْبيرُ بلفْظِ (الرّبّ) في السّياقِ الأكرمِ:

في التّعبير باسْمِ الرّبِّ في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ إشارةٌ إلى إنعامِه سُبحانَه عليهم بتوفيقِهم إلى الاستجابة، وتنويهٌ بشأنِهم في عدم الغفلةِ عنِ الاستجابة لربِّهم كما فعلَ غيرُهُم.

مِن نِعَمِ الله على العبد، أن يُريَهُ الحقَّ حقًّا، ويَرْزُقَهُ اتّباعَه

عِلّةُ إضافَةِ الرُّبوبيّة إلى ضميرِ المُستجيبين:

في إضافةِ اسْمِ الرّبِّ إلى ضميرِهم تشريفٌ لهم، وإعزازٌ لمكانتِهم، وإعلاءٌ لشأنِهم، وهم أهلٌ لهذه المَكرُمةِ لاستجابتِهم داعيَ ربِّهم.

الاستجابةُ للرّبّ الرّحيمِ تشريفٌ واصطفاءٌ وتكريمٌ

إيثارُ لفْظِ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ صيغةً ومعنًى:

الحُسنى مُؤنّثُ أحسن - أفعلَ التّفضيل منَ الحُسن - لكنّه هنا ليس على بابِه، لذا فالمُرادُ بالحُسنى الحالُ البالغةُ أقصى درجاتِ

لا شيءَ أوْفَى بوصْفِ (الحُسنَى) منَ الجَنّةِ

(1) الطّيبيّ، حاشية الطّيبيّ على الكشّاف: 8/500.
وقال الطّيبيّ في هذا الموضع: الفصاحةُ على انقطاعِ ما بعدَ الفاصلة عنها، ولهذا انحطَّ قولُ امرئ القيس:
ألَا أيّها اللّيلُ الطّويلُ ألَا انجَلي *** بصُبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأمثَلِ
عن قول أبي الطّيب:
إذا كانَ مدحٌ فالنّسيبُ المُقَدَّمُ *** أكُلُّ فصيحٍ قالَ شِعرًا مُتَيَّمُ
(2) الدّاني، المكتفى في الوقف والابتدا، ص: 107، والأشمونيّ، منار الهدى، ص: 407، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/375.

الحُسنِ ونهايته الّتي لا غايةَ في الحُسن بعدَها[1]، ولا شيءَ أوفَى بهذا الوصف منَ الجَنّة، ولا أحقَّ به منها.

إيثارُ الإجْمالِ في جزاءِ المُستَجيبين:

ولم يَزِدْ في جزاء الّذين استجابوا على النّصِّ بأنّ لهُمُ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، كما فصَّلَ في جزاء الّذين لم يَستجيبوا؛ إيثارًا للإجمال والاختصارِ؛ وللدّلالة على أنّ جزاءَ المُستجيبين، لا يدخلُ تحتَ الوصْفِ[2]، فهو أعلَى مِن كلِّ وصْفٍ يُمكنُ أن تذهبَ إليه نفسٌ.

الوَصْفُ بـ (الحُسنى) أعلَى من كلِّ وصْفٍ مُحتَملٍ

دَلالةُ الواوِ في قوله ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ ابتدائيّةٌ أوِ استئنافيّةٌ[3]، والجملةُ بعدَها مُستأنَفةٌ. واسْمُ الموصول مبتدأٌ، وخبرُه جملةُ ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾[4]، واستأنفَ ولم يعطفْ لانتفاءِ الشَّراكةِ بين مَن يَستجيبُ ومَن لا يَستجيبُ، فضلًا عنِ الإيذان بردِيء فعلِهم أنّهم لم يستجيبوا.

لا شَراكةَ بين مَن يَستجيبُ لربِّه، ومَن لا يَستجيبُ

فائِدةُ تَكرارِ الموصولِ في السّياقِ الكريمِ:

ذَكَرَ الموصولَ مع الجملة الثّانية ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ ذمًّا لهم، وقصدًا لجملة الصّلةِ؛ لأنّها تحملُ سببَ عدمِ اعتبارِهم بالأمثال، تمامًا كالموصول وصِلَتِه في الجملة الأولى[5].

ذَكَرَ الموصولَ لِذَمِّهم، بما تحملُه جملةُ الصّلةِ

تَوْجيهُ جملةِ النّفْيِ بالحرف ﴿لَمۡ﴾ دونَ غيرِه:

صيغَتْ جملةُ النّفي مُصدرَّةً بـ ﴿لَمۡ﴾ النّافيةِ دونَ غيرها، كـ(لا)، و(لن) للدّلالة على أنّهم لم يستجيبوا لربِّهم في ماضيهم، وأيضًا في حاضرِهم؛ بخلاف (لا) فهي لنفيِ الحال والاستقبال، و(لن)

دَلالةُ (لم) على نفْيِ استِجابتِهم، ماضيًا وحاضرًا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3926.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/126.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/491.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/43، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/109.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/122.

لنفيِ الاستقبال، كما هو مَعلومٌ. وفي النّفي بها دعوةٌ لهم إلى تدارُكِ حالِهم، حيثُ لم يقضِ عليهم نصُّ الآية بعدمِ الاستجابة أبدًا.

التّعْبيُر عن نفْيِ الاسْتجابةِ بالمضارع:

نفيُ الاسْتِجابة دائـمٌ؛ لـدوامِ رُكـونِـهـم إلى الكفْرِ والكنودِ

عبَّرَ بالمضارع الّذي دخلَت عليه ﴿لَمْ﴾ النّافيةُ الجازمةُ؛ للدّلالةِ على نفْيِ الاستجابةِ في الماضي، واستمرارِهِ في الحال.

بَلاغةُ طِباقِ السّلْبِ بين ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾ و﴿لَمْ يَسْتَجِيبُواْ﴾:

بضدِّها تَتَميّزُ الأشياءُ، والضِّدُّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضِّدُّ

بينَ قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾ في الجملة الأولى وقولِه تعالى: ﴿لَمْ يَسْتَجِيبُواْ﴾ في الجملة الثّانية ما يُعرَفُ بطِباقِ السّلبِ النّاتجِ عنِ اختلافِهما إيجابًا في الأولى؛ إذ أثبتَ الاستجابةَ لفريق أهلِ الحقّ، وسلبًا في الثّانية حيثُ نفاها عن أهل الباطلِ.

نُكتةُ العُدولِ منَ الرُّبوبيّةِ إلى الضّميرِ في ﴿لَهُۥ﴾:

حِرْمانُ الكافرين مِـــن شَـــرَفِ الإضـــافـــةِ إلى اسْمِ الرّبِّ

يُلحَظُ من جملة الفروقِ بين الجملة الأولى والثّانية، أنّه في الأولى أظهرَ اسْمَ الرّبِّ، وأضافَه إلى ضمير المُخاطَبين، تشريفًا لهُم، وهو ما لم يحدُثْ في الجملة الثّانية، فقد عبَّرَ بالضّمير؛ مَنْعًا للتّكرار بلا داعٍ، وبيانًا لكونِهم ليس من شأنِهم أن يستجيبوا لحقٍّ[1]، وأيضًا كي لا يَحوزوا شرفَ الإضافةِ الّتي حازَها أهلُ الحقِّ.

بَديعُ إخْفاءِ عَذابِ الّذين لم يَسْتَجيبوا:

تهويلُ عَذابِهم بإخْفاءِ نوْعِه

في سَوق الجملةِ الامتناعيّة: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ﴾ دونَ أن يُصرِّحَ بنوع العذابِ، دلالةٌ على هوْلِه؛ بحيث لا تساعدُ على وصْفِه العبارةُ الصّريحةُ ولا الإشارةُ[2] وهذا من جملة الفروقِ بين الجُملتَين كذلك. ومن جملة الفروقِ بين الجُملتَين العُدولُ بتقديمِ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه في جملة ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾؛ إذ إنّه في سبيل الإخبارِ عن

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/1327.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/491.

وعيدِهِم "أُجري على أصل نظمِ الكلامِ في التّقديم والتّأخير؛ لقلّةِ الاكتراثِ بهم"[1].

دَلالةُ ﴿لَوْ﴾ الشّرطيّةُ في هذه الجُملةِ القُرآنيّةِ:

تفيدُ ﴿لَوْ﴾ الشّرطيّةُ في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ﴾ الامتناعَ المُتكرِّرَ؛ أي: امتناعَ وقوعِ الجزاءِ، لامتناع وقوعِ الشّرط، فهي مفيدةٌ هنا عدمَ وقوعِ الفداء؛ لأنّه ليسَ لهم ما في السّماواتِ والأرضِ، فضلًا عن ضعْفِه، ودالّةٌ على فداحةِ عذابِهم، وهوْلِ عقابِهم.

لـــن يَـــقـــعَ الـفِـداءُ منهم؛ لاسْتِحالةِ حيازةِ ما في السَّماواتِ والأرضِ

وَجْهُ التّوكيدِ بـ ﴿أَنَّ﴾ في سياقِ الآيةِ:

في التّعبير بـ ﴿أَنَّ﴾ التّوكيديّةِ دلالةٌ على أنّ الأمرَ ليس مَبنيًّا على المُبالغة؛ بل هو حقيقةٌ، لو حصلَ المُمتنَعُ - وهو غير حاصلٍ -، فلو أنّ لديهم ما ذكرَتْه الآيةُ، ما تردّدوا في التّضحيةِ به، فداءً لأنفسهم، ممّا يلاقونَه من عذابٍ.

لا شيءَ يَعْدلُ الـنّـفـسَ عـنـدَ صاحبِها، وكلُّ شـــيءٍ دونَـهـا يهونُ

نُكتةُ تَقْديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿لَهُم﴾ في السّياقِ:

قولُهُ تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وفيه أنّ اللّامَ الجارّةَ هي لامُ شبْهِ المُلكِ الدّاخلةُ على ضميرِهم، وهي ملكيّةٌ قُصِدَ بها التّحسيرُ، وفي تقديمِهما دلالةٌ على الاخْتصاصِ، والاختصاصُ هنا مُجرَّدُ فرْضٍ؛ لأنّ الكلامَ مُعلَّقٌ على مُستحيلٍ، وهو أن يَملِكوا ما في الأرض وضِعفَه، وهو مُستحيلُ حُصولُه.

الاخْـتِـصـاصُ والـتّـحـسـيرُ في الـتّـعـبـيرِ مـنَ البيانِ الأثيرِ

إيثارُ ﴿مَّا﴾ الموصولةِ في الجملةِ:

أوثِرَت ﴿مَّا﴾ الموصولةُ؛ لكونِها جامعةً للمَقصود مع تحقيق الإيجاز؛ لاستغراقِها عمومَ موجوداتِ الأرض، بما تحملُه من دلالة الإبهامِ والعُمومِ.

حَـصَـلَ المقصودُ بـــالإعـــمـــامِ، وحقَّقَ الإيجازَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/123.

وَجْهُ تعريفِ لفْظِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

ذُكِـرَتِ الأرضُ مُـعـرّفـةً؛ لـتـفـخـيـمِـهـا والـتّـنـبـيـهِ إلى أهمّيّتِها

أفاد تعريفُ الأرض في قوله تعالى: ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ التّفخيمَ على معنى: أنّ هذه الأرضَ الفخمةَ، المُشتمِلةَ على المَنافعِ العظيمةِ، لو أنّها في ملكِهم لضَحّوا بها؛ فداءً لأنفسِهم منَ العذاب.

فائِدةُ التّوكيدِ بلَفْظِ ﴿جَمِيعًا﴾ في السّياقِ:

لـن يَـضِـنّـوا عـلى فِـداءِ أنفسِهم، بكلّ ما في الأرض، لوِ امْتَلكوه

أفادَت كلمةُ ﴿جَمِيعًا﴾ التّوكيدَ؛ أي: توكيدَ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فمِنَ المُؤكَّدِ أنّهم لن يَضِنّوا على فداءِ أنفسِهم، بكلّ ما في الأرض لو مَلَكوه. ففي لفظِ التّوكيدِ بيانُ شدّةِ اضطرارِهم لأدنى شيءٍ يَفتدونَ به أنفسَهم، أيًّا كان.

سِرُّ عطْفِ ﴿وَمِثْلَهُۥ﴾ بالواوِ في الآيةِ الكريمةِ:

بيانُ المبالغةِ في إظْهارِ الرّغبةِ، في فداءِ النّفسِ بكلِّ نفيسٍ

قولُهُ تعالى: ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ معطوفٌ على ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، والعطْفُ بالواو بقصْدِ الجمْعِ والتّشريكِ والمُبالغةِ في إظهارِ رغبتِهم في التّضحيةِ بالنّفيس والسّعي للفداء بالعزيز، بل بما في الأرض جميعًا على فرضِ تملُّكِهم إيّاه، لغرضِ الأمانِ منَ العذابِ.

دَلالةُ الإطْنابِ في السّياقِ بقوله ﴿مَعَهُۥ﴾:

تَهْويلُ العذابِ الواقعِ عليهم بالنّصِّ على المَعيّةِ

نصَّ على قوله تعالى ﴿مَعَهُۥ﴾ وهو ظرفٌ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ؛ لوقوعِهِ مَوقِعَ الحال من قوله تعالى: ﴿وَمِثْلَهُۥ﴾[1]، وفائدةُ النّصِّ على المعيّةِ "التّصريحُ بفرض كينونَتِهما لهم بطريق المعيّةِ، لا بطريق التَّعاقُبِ؛ تحقيقًا لكمال فظاعةِ الأمر"[2].

معنَى اللّام في قوله ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ﴾:

الإنكارُ يَستدعي التّوكيدَ، في السّياقِ الرّشيدِ

اللّامُ هي الواقعةُ في جواب ﴿لَوْ﴾، وهي مُفيدةٌ للتّأكيد؛ لأنّ المُشركين كانوا مُنكِرين للبعث، ومُنكِرين أن يذلَّهم شيءٌ، أو يوهِنَ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/143، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/110.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/33.

قواهم شيءٌ[1]. وقد حكى القرآنُ عنهم هذا في قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ: 35].

بناءُ الافْتِداءِ على صيغةِ الافْتِعالِ:

المحبوبُ بالذّات أقوَى من المحبوب بالعَرَض

بَنى صيغةَ ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ﴾ على الافتعال، فلم يقُلْ: (لفدوا) دلالةً على استعدادِهم لبذْلِ أقصى طاقاتِهم في البذل والتّضحيةِ، بكُلِّ ما يَملِكون، ولو كانَ ما يملكونَه كلَّ ما في الأرض وضعْفَه بل وأكثرَ؛ "لأنّ المَحبوبَ بالذّاتِ لكلِّ إنسانٍ هو ذاتُهُ، وكلُّ ما سواهُ فإنّما يحبُّهُ لكونهِ وسيلةً إلى مَصالِحِ ذاتِهِ، فإذا كانَتِ النّفسُ في الضَّرَرِ والألمِ والتَّعبِ، وكانَ مالكًا لِما يُساوي عالَمَ الأجسادِ والأرواحِ، فإنّه يَرضى بأنْ يَجعلَهُ فِداءً لنفسِه؛ لأنّ المحبوبَ بالعَرَضِ، لا بدَّ وأنْ يكونَ فِداءً لِما يكونُ محبوبًا بالذّات"[2].

دَلالةُ شِبْهِ الجملةِ ﴿بِهِۦٓ﴾ في السّياقِ:

دَلالةُ الباءِ على المبذولِ بدخولِها عليه

الباءُ الجارّةُ في قوله تعالى: ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓ﴾ هي باءُ العِوضِ الّتي تدخلُ على المَتروك أوِ العِوضِ المبذولِ.

عِلّةُ إفرادِ الضّميرِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

أفردَ الضّميرَ؛ لدُلّ على أنّه شاملٌ ما في الأرض وزيادةً

أفردَ الضّميرَ المجرورَ ﴿بِهِۦٓ﴾ مع أنّ الّذي تقدَّمَه شيئان؛ وهما: ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾؛ للإشارة إلى أنّهما لتلازمِهما قد صارا بمنزلةِ شيءٍ واحدٍ، أو لإجراء الضّميرِ مَجرَى اسْمِ الإشارةِ، بأن يُؤوَّلَ المَرجِعُ المُتعدِّدُ بالمذكور[3] أو يكونَ الضّميرُ عائدًا إلى ﴿وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾؛ لكونهِ شاملًا ما في الأرض وزيادةً[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/326.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/31.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/143.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/188.

فائِدةُ الإتيانِ باسْمِ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

جيءَ باسْم الإشارة الخاصِّ بالبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ للدّلالة على بُعدِ مَنزلتِهم في الكفر، وفي عدم الاستجابةِ للّه.

مَنزلتُهم عاليةٌ في الكفْرِ لا في الإيمانِ

ومِن أسباب الإتيانِ به كذلك "التّنبيهُ على أنّهم أحرياءُ بما بعدَ اسْمِ الإشارةِ مِنَ الخبرِ بسببِ ما قَبْلَ اسْمِ الإشارةِ مِنَ الصّلةِ"[1]؛ أي: هُم جديرون بأن يكونَ لهم سوءُ الحساب؛ لكونهم لم يستجيبوا لربِّهم.

نُكتةُ تَقْديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿لَهُمْ﴾:

أفادَ تقديمُ شِبهِ الجملةِ مِنَ الجارّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ على قوله تعالى: ﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ قصْرَ سوءِ الحسابِ عليهم، واختصاصَه بهم، وإخراجَ أهلِ الحقِّ منه، بحيث لا ينالُهُم منه شيءٌ.

رَفَضوا الاسْتِجابةَ، فخَصّوا أنفسَهُم بسوءِ العذابِ

تَعْريفُ السّوءِ بالإضافةِ:

عَرَّفَ السّوءَ بالإضافة فقال: ﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾، وهو من إضافةِ الصّفةِ إلى الموصوفِ؛ إبرازًا للموصوف، وهو ﴿ٱلْحِسَابِ﴾، لعلَّه أن يُحدثَ فيهم هزّةً فَيرتدِعوا. والمُرادُ بـ ﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ ما يَحُفُّ به "من إغلاظٍ وإهانَةٍ للمُحاسَبِ. وأمّا أصلُ الحسابِ فهو حَسَنٌ؛ لأنّه عَدلٌ"[2] ومن صوَر سوءِ الحسابِ المناقشةُ فيه، والسّؤالُ عن النّقير والقِطمير، وما يُصاحبُهُ من تقريعٍ وتوبيخٍ، ويُشيرُ إليه قولُه ﷺ: «مَنْ نوقِشَ الحِسابَ عُذِّبَ»[3].

أبرزَ المَوْصوفَ؛ ليحْملَهُم على الارْتداعِ

إيثارُ لفْظِ ﴿ٱلْحِسَابِ﴾ دونَ (العقابِ والعذابِ):

أوثرَ التّعبيرُ بـ ﴿ٱلْحِسَابِ﴾ دون العقابِ في قوله تعالى: ﴿سُوٓءُ

الحِسابُ هو العَدْلُ، وقد لا يَقتضي عِقابًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/123.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/123.
(3) البخاري، صحيح البخاريّ، الحديث رقم: (6536).

ٱلْحِسَابِ﴾؛ لأنّ المقصودَ بسوء الحسابِ، ما يسوءُ الإنسانَ، مُتزامِنًا مع الحساب، وليس شرطًا أن يكونَ ما يسوءُ عقابًا، فقد يسوءُ الإنسانَ، ما لم يبلُغْهُ من مراتبَ منَ الكمال، كان يَطمحُ في الوصول إليها، وإنْ كانَت تُعَدُّ عند غيرِه - ممّن لم يكنْ له نفسٌ طموحه - منَ المَكرماتِ.

فائِدةُ التّذْييلِ بجملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾:

قـابَـلَ تمنّيهُمُ الافتداءَ، بتَشْبيتِ سوءِ عذابِهم

جملةُ التّذييل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ مُقرِّرةٌ لمفهوم ما قبلَها من عدمِ خلاصِهم من سوء العذابِ، لو افتدَوا به، ومُؤكِّدةٌ له[1] ومُبرِزةٌ عسيرَ مآلِهم؛ وشنيعَ مصيرِهم؛ إذ قوبِلَت تَفديتُهُم أنفسَهُم بما في الأرض - لو كانت ملكَهم - بسوء الحسابِ.

دَلالةُ تَكرارِ العطْفِ بحرفِ (الواو) في الجُملِ الثّلاثِ:

حيازتُهُم لأنواعِ العذابِ بالجمْعِ والـتّـزامُـنِ، لا بالتّعاقُبِ

دلَّ العطفُ بالواو - وهي لمُطلَق الجمع - بين الجُملِ الثّلاثِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ على حيازتِهم لأنواعِ العذابِ الثّلاثةِ المذكورةِ. ونصّ الرّازيُّ على عذابٍ رابعٍ، هو المفهومُ من قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ﴾[2].

عَطْفُ الإنشاءِ على الإخبارِ في جملةِ ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾:

بئسَ المآلُ مآلُ مَـن يُـفْـضي إلى الـنّـارِ، وبئسَ القرارُ

فيما يخصُّ الجملةَ الثّالثةَ ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ فإنّها معطوفةٌ بالواو، وذلك على رأيِ مَن يرى جوازَ عطفِ الإنشاء على الخبر، أمّا على رأيِ مَن لا يجيزُه، وهُم أكثرُ البيانيّين، فإنّ الواوَ تكونُ للحال؛ والمعنى: بيانُ مآلِ حالِهم، بأنّه بئسَ المِهادُ.

إضافةُ المَأوَى إليهم:

طـولُ الصُّحبةِ والمُـلازَمـةِ، هي مُسوِّغُ الإضافةِ

معنى قوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: مكانُهم ودارُهم،

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/491.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/31.

فالمَأْوَى اسمُ مكانٍ، وإضافةُ هذا المكان إليهم دلالةٌ على طول المُلازَمةِ له، بل دوامِها؛ بوصْفِها مأواهم، ومحلَّ استقرارِهم.

إيثارُ لفْظِ ﴿جَهَنَّمُ﴾ على (النّار):

الجمْعُ بين التّعذيبِ بالألم، والتّغذيبِ بالتَّجهُّمِ

في تفسير عربيّة لفْظِ (جهنّم) يُحتملُ أنّه مُشتَقٌّ منَ الجهم أو الجهومة، وهو الشّيءُ المخوفُ العابسُ الكريهُ[1].

وعندئذٍ يكونُ ما يحملُه لفظُ ﴿جَهَنَّمُ﴾ من معنى الكراهية والبُغض والخوف هو مُسوِّغَ اختيارِه هنا؛ فلكونهم كرهوا الاستجابةَ لربّهم، يعاقِبُهُم اللّه في جهنّمَ الّتي يحملُ اسمُها المعاني الموصوفة المذكورة جزاءً وفاقًا.

بَلاغةُ التّعبيرِ بفعلِ الذّمِّ ﴿وَبِئْسَ﴾:

إرداف الذّمّ بسوء المصير، مَسلكٌ في التّنبيهِ والتّحذيرِ

الفعلُ ﴿وَبِئْسَ﴾ وُضِعَ للدّلالة على الذّمِّ، ويقابلُه (نِعمَ) الدّالُّ على المَدح، وهو فعلٌ جامدٌ غيرُ مُشتقٍّ، لا يدخلُه التّصريفُ[2]، وأصلُهُ منَ البؤس[3] وهو يعبِّرُ هنا عنِ الذّمّ، وقُبحِ المآلِ، وشدّتِهِ، ومَشقّتِهِ.

تَوْجيهُ الإيجازِ بحذْفِ المَخصوصِ بالذّمِّ:

الحذْفُ اختِصارًا يكونُ بتقدُّمِ ذِكْرِ ما يدلُّ على المَحذوفِ

المخصوصُ بالذّمِّ محذوفٌ، وحذفُه يكونُ للاختصار، وحَذَفَ المخصوصَ بالذّمّ مُكتفيًا بالمذكورِ لورودِ ما يدلُّ عليه، وهو جهنّمُ؛ أي: بئسَ المِهادُ جهنّمُ[4].

إيثارُ لفْظِ المِهادِ مُعرَّفًا في السّياقِ الحكيمِ:

التّهكُّمُ بالمُعذَّبين، بتَسْمية جهنّمَ مِهادًا

المِهادُ هو ما يُمهَّدُ من فراشٍ لأجل النّوم عليه، ومنه مَهدُ الطّفلِ. و(أل) التّعريفيّةُ فيه للعهدِ، والمعهودُ معروفٌ لكونهِ مذكورًا، وهو ﴿جَهَنَّمُ﴾، ومن أغراضِ ذكرِه اسمًا لِجهنَّمَ وتعريفِه: التّهكُّمُ؛ لأنّ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/4138.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/272، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/326، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4138.

(3) السّيوطيّ، الإتقان: 2/221.

(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/233.

العُصاةَ يُلقَونَ فيها فَتُصادِفُ جنوبَهُم وظهورَهُم[1] وعندئذٍ لن يستطيعَ المُلقَى في جهنّمَ أن يتصرَّفَ لحظةَ وضْعِه في النّار، كما لا يستطيعُ الطّفلُ الوليدُ أن يتصرَّفَ في مِهادِه[2].

تَوْجيهُ المُتشابِهات في ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾:

في تنوُّعِ التّعبيرِ استِقْصاءٌ لألوانِ العذابِ، وإنذارٌ بِعِظَمِها

﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذه ثلاثةُ أوصافٍ لجهنّمَ مسبوقةٌ بفعل الذّمِّ (بئس)، وكلُّها تدُلُّ على سوء حالِ أهلِ النّار، والاختلافُ بينَها هو من باب التَّفنُّنِ، واستقصاءِ أحوالِ العذابِ، وعيدًا وإنذارًا للكافرين، وتفصيلُ ذلك:

أنّ التّعبيرَ بـ ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ قد وردَ في عددٍ منَ الآيات، منها قولُه سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: 206]، وقولُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران: 12]، وقولُه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

والمِهادُ هو ما يُمهَّدُ من فراشٍ لأجل النّوم عليه، ومنه مهدُ الطّفلِ. والمعنى: بئسَ المِهادُ جهنّمُ، وهو دلالةٌ على العذاب الّذي يأتيهم من تحتِهم؛ ليكونوا مَشْمولين بالعذاب من كلِّ جهاتِهم، ومن أغراضِ ذكرِه اسمًا لجهنّم وتعريفِه التّهكُّمُ؛ لأنّ العُصاةَ يُلقَونَ فيها فَتُصادِفُ جنوبَهُم وظهورَهُم[3].

وأمّا القرارُ فالمُرادُ به المَقرُّ الّذي يكونُ فيه المُستقرُّ، على معنى بئسَ القرارُ مَقرُّهم، وهو تعبيرٌ عن طول المَقامِ السَّيّئِ. وقد وردَ في قوله تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: 28 - 29] وفي قوله:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/272.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7274.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/272.

﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ٥٩ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٦٠﴾ [ص: 59 - 60]، وكأنّه أرادَ أن يُؤكِّدَ على وصْفِ دارِ البَوارِ والهلاكِ، بكونِها أيضًا بئسَ المَقرُّ، لزيادةِ تبئيسِهم لعلَّهم يَرجعون.

وأمّا المصيرُ فهو المَرجِعُ والمَآلُ، والتّعبيرُ بـ ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة: 126] كثيرٌ في الكتاب العزيز؛ والمعنى: بئسَ المصيرُ مصيرُهُم.

إذن هذا التّنوُّعُ وذاك التَّفنُّنُ في ذمِّ جهنّمَ، المقصودُ منه التّهديدُ والوعيدُ والإنذارُ، عساهُم أن يَرتدعوا ويثوبوا إلى رشادِهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الحسابُ والعقابُ والعذابُ:

الحسابُ العدلُ في المُحاسَبة، وكلُّ عقابٍ عذابٌ، وليسَ كلُّ عذابٍ عقابًا

الحسابُ: في الأصل العدُّ، ثمّ أُطلِقَ على عدِّ الأشياءِ الّتي يُرادُ الجزاءُ عليها أو قضاؤُها، فصارَ الحسابُ يُطلَقُ على الوفاء بالحقِّ. يُقالُ: حاسبَه؛ أي: كافأه أو دفعَ إليه حقَّه، ومنه سُمّي يومُ القيامة يومَ الحساب[1] وعلى هذا، فهي تسميّةٌ دالّةٌ على العدل والوفاء بالحقِّ، وهو اسمُ مدحٍ. وهذا هو الفرقُ بينَه وبينَ كُلٍّ منَ العقابِ والعذابِ؛ أنّه يعني المحاسبةَ بالعدل الّتي قد يَؤولُ معَها الأمرُ إلى العقابِ.

وأمّا عنِ الفرق بين العقابِ والعذابِ فهو أنّ العقابَ يُنبِئُ عَنِ استِحقاقٍ، وسُمّي بذلك؛ لأنّ الفاعلَ يستَحقُّهُ عَقيبَ فعلِه، أمّا العذابُ فيجوزُ أن يكونَ مُستَحَقًّا وغيرَ مُستحَقٍّ[2] ومعنى هذا أنّ بينَ العقاب والعذاب – من حيث اللّغةُ – عمومًا وخصوصًا مُطلَقًا، فكلُّ عقابٍ عذابٌ، وليسَ كلُّ عذابٍ عقابًا. أمّا عن عذاب اللّه في الآخرة فلا فرقَ بينَه وبين العقابِ؛ لأنّ اللّه تعالى لا يُعذِّبُ إلّا عنِ استحقاقٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/249.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239.

ولِتضمُّنِ دلالةِ الحسابِ العدلَ والوفاءَ بالحقّ ناسبَ اصطفاءَه في الآية للدّلالةِ على مُجازاتِهم بصنيعِهم، وهو أشدُّ وقعًا على المُعذَّب؛ فلسانُ حاله: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾ [الأنعام: 27].

المَأوَى والمَنزِلُ والمَثوى:

المَأوَى: هو كلُّ مكانٍ يأوي إليه شيءٌ ليلًا أو نهارًا. ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾، ومن أصولِه الدّالِّ عليها التَّجَمُّعُ، كما هو مَلحوظٌ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ [الكهف: 10]، وقال: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ﴾ [المؤمنون: 50]، قالَ الخليلُ: التَّأوّي التَّجَمُّعُ، يُقالُ: تَأوَّتِ الطَّيرُ: إذا انضَمَّ بَعضُها إلى بَعضٍ[1] وهو ضَمٌّ مع ضعفٍ ما - كما في الإيواءِ للنُّصرة والحياطة، وكما في تأوّي الجُرحِ، فإنّ تقاربَه للبرءِ، يتمثَّلُ في تضامِّه. وكما في الأوي إلى المَنزِل، وكذا إيواءُ الرّجل، وكذا المَأوَى المَنزِل، فكلُّ ذلك لا يُستعمَلُ فيه (أوَى) إلّا لضعفٍ ما - كالحاجةِ إلى الحماية من عدوّ أو مَخوفٍ أو جوٍّ يضرُّ التّعرُّضُ له، وكالحاجة إلى الرّاحة[2]، وقَد أُطلِقَ المَأوَى في التَّنزيلِ على الجَنَّة، وهو على الأصلِ في استِعمالِه، وعلى نارِ الجَحيم، وهو من بابِ التَّهكُّم، ونُكتَتُهُ بَيانُ أنَّ مَن كانَت النّارُ مَأواهُ لا يَكونُ لَهُ مَلجأٌ يَنضوي إليهِ، ولا مَأمَنٌ يَعتَصِمُ به[3] وهو علّةُ اختيارِه في الآية دونَ غيرِه منَ الألفاظ المُشابهة له.

المأوَى دالٌّ على التَّجمُّع، والمثوى على عدَمِه، والمَنزِلُ دالٌّ على الاستقرارِ

المَثوَى: الثَّواء: الإقامَةُ مع الاستقرارِ، قال ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 45]، وقال: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾ [الزمر: 60] وقال: ﴿فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾ [فصلت: 24]، وقال: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ

(1) الخليل، العين: (أوى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أوو - أوى).
(3) رضا، تفسير المنار: 10/93.

جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ [الزّمر: 72]، وقال: ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الأنعام: 128][1]، فهو مِن ثَوَى بالمكان إذا أقامَ به إقامةَ سُكنى أو إطالةَ مُكثٍ، وقد بيّنَ الثّواءَ بالخلود بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الأنعام: 128][2] ونَلحظُ أنّ القرآنَ قد خصَّه بأهل النّار، ولم يذكرْهُ مع أهل الجنّةِ. فسائرُ ما في القرآن منَ التّركيب هو (مَثوَى) بمعنى مكانِ الثّواءِ والإقامةِ (جهنّم) للكفّار حسب السّياق[3].

والمَنزِلُ - بكسر الزّاي -: الدّارُ مَوضِعُ النّزول[4] والنُّزُلُ - بضمَّتين -: ما يُعَدُّ للنّزيل والضّيف مِنَ القِرى. وإطلاقُ اسمِ النُّزُلِ على العذاب استعارةٌ، علاقتُها التَّهكُّمُ، كقول عمرو بن كلثوم:

قَرَيناكُم فَعَجَّلنا قِراكُم *** قُبَيلَ الصُّبحِ مِرداةً طَحونا[5]

والدّارُ: المَنزِلُ اعتبارًا بدَوَرانِها الّذي لها بالحائطِ، ويُقالُ لكُلٍّ مِنَ الدّنيا والآخرة دارٌ[6] وأطلقَ على النّار بإضافتِها إلى صفتِها في قولِه سبحانه: ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم: 28][7]، أمّا الجَنّةُ فقد أطلقَ عليها ﴿ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرّعد: 24] مُطلَقًا دونَ الحاجةِ إلى وصفٍ في قوله سبحانه: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرّعد: 24]، وأحيانًا مع وصفٍ حسبَ السّياق، كما في قولِه تعالى: ﴿*لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الأنعام: 127].

وبعدَ هذا العرض، نرصدُ الفروقَ بين أربعتِها، مع تأكيدِ التّقارُبِ الدّلاليِّ بينَها؛ لكونِها جميعًا دالّةً على الإقامة بالمكان مع طولِ مُكثٍ.

أمّا لفظُ المَأوَى فملحوظٌ في دلالتِه معنى التَّجمُّعِ، وهو ما يميّزُهُ من بقيتِها، سواءٌ كان هذا التَّجمُّعُ في الدّنيا كتجمُّعِ أهلِ الكهف، وكما يُطلَقُ الآنَ على التَّجمُّعِ السّكانيِّ لِمَن فقدوا ديارَهُم: (منازل الإيواء)، أو كانَ هذا التَّجمُّعُ في الآخرة، كتجمُّعِ أهلِ الجنّةِ فيها للأُنس ﴿جَنَّتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [السّجدة: 19]، أو تجمُّعِ أهل النّارِ ﴿وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ [المائدة: 72].

(1) الرّاغب، المفردات: (ثوى).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/70.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثوى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/45. وينظر: ديوان عمرو بن كلثوم، ص: 73.
(6) الرّاغب، المفردات: (دار).
(7) يُنظر قول ابن عاشور في التّحرير والتّنوير حول التعبير بالدّار لأهل النّار: 14/140.

وأمّا لفظُ المَثوَى فملحوظٌ فيه أنّ القرآنَ لم يَستعملْهُ إلّا في حقّ أهلِ النّارِ، ولم يُعبِّرْ به عن أهل الجنّةِ، وقد ألمَحَ ابنُ عاشور إلى دلالة التّعبيرِ به، وهو أنّ أهلَ النّارِ "مُتراصّونَ في النّار، وهُم في مَثوَى؛ أي: مُحلّ ثواء"[1]، ففيه معنى التّحقيرِ لهم.

أمّا المَنزِلُ فهو الدّارُ، والدّارُ هي محلُّ الاطمئنانِ والاستقرارِ، ولذا فإنّ التّعبيرَ به لا يخرجُ عن هذا المعنى، إلّا مقصودًا به غرضٌ آخرُ كالتَّهكُّم ونحوِه، وهو المَفهومُ منَ التّعبير به عن جهنّمَ بكونِها نُزلًا للكافرين، مع أنّ التّعبيرَ به لا يكونُ إلّا في معنى الإكرامِ؛ إذ أصلُهُ: إعدادُ القِرى للضّيف.

ومثلُ المَنزِلِ التّعبيرُ بالدّار، فالدّارُ مَحلُّ الاستقرارِ والاطْمئنانِ، ومِن ثَمّ أطلقَ على الجنّة لفظَ (الدّار)، بخلاف جهنّمَ، فما أُطلِقَ عليها لفظُ الدّارِ إلّا موصوفةً بما يدُلُّ على سوءِ ما فيها، كدار البوارِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/140.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»